المحاضرة السادسة

– الإلزام الخلقي والمسؤولية والجزاء :

يرتبط الإلزام الخُلُقي، والمسؤولية الخُلُقية، والجزاء الخُلُقي، ببعضها ارتبط العلة بالمعلول، فيكون الإلزامَ أولاً، فتترتب عليه المسؤوليةُ، فيلزم منهما الجزاء.

و فيما يأتي تعريفٌ موجزٌ بكلٍ منها :

– تعريف الإلزام الخلقي، وذكر مصادره والعوامل التي تحمل عليه.

– تعريف الإلزام الخلقي :

الإلزام في اللغة: الفرض والإيجاب.

و يمكن تعريفه اصطلاحاً بأنه: تكليفٌ صادرٌ من الشرع بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذموم .

و هذا التكليف أعم من أن يكون جازماً أو غير جازم، وفي جانب الفعل أو الترك .

– مثال السلوك الخُلُقي المطلوب فعله على سبيل الحتم والإيجاب: بر الوالدين

– مثال المطلوب فعله ولكن ليس على سبيل الحتم والإيجاب: إماطة الأذى عن الطريق، وهو المندوب.

– مثال المطلوب تركه طلباً جازماً: الكِبْر والحسد، وهو الحرام.

– مثال المطلوب تركه ولكن ليس على سبيل الحتم: أن يشرب الماء في نفس واحدٍ، أو أن يتنفس في الإناء، وهو المكروه.

– مصادر الإلزام الخلقي :

– المصدر الأول: القرآن الكريم :

– يعتبر القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للإلزام الخلقي، إذ أن آياته تنتظم على النحو الآتي:

– آيات الاعتقاد وهي تتعلق بما يجب على المكلف أن يعتقده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

– آيات تتعلق بما يجب على المكلف أن يتحلى به من الفضائل ويتخلى عنه من الرذائل.

آيات تتعلق بما يصدر عن المكلف من أعمال وأقوال وتصرفات وهي على نوعين: العبادات، ويقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه، والمعاملات ويقصد بها تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض سواء كانت علاقات أفراد أو أمم أو جماعات، وهذه تضم أخلاقاً تتصل بالأسرة، والقضاء ونظام الحكم، ومعاملات الدولة الإسلامية، ومعاملات غير المسلمين، كما تضم أخلاقا تتصل بالنواحي المادية والاقتصادية.

المصدر الثاني: السنة النبوية:

ما صدر عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يخلو مما يلي :

– بيان المنهج الإسلامي، فهذا شرع متبع، وبالتالي يكون خلقاً من أخلاق الإسلام.

– ما صدر عنه بمقتضى طبيعته البشرية، أو صدر عنه بمقتضى الخبرة البشرية أو بمقتضى العادات الجارية، فهو ملزم إذا قام على ذلك دليل يدل على أن المقصود من فعله الاقتداء.

– ما صدر عنه ودل الدليل على أنه خاص به، فلا يعتبر تشريعاً لعموم المسلمين.

وعليه : فإن ما يثبت بدليل يقصد به التشريع العام واقتداء المسلمين به فهو من قبيل الإلزام، لأنه قانون يجب اتباعه .

ومهما يكن من أمر، فإن السنة زاخرة بالأخلاق، ولا غرو فهي حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم، والمجتمع الإسلامي المعاصر له، ولأنها مصدر تشريعي لهذه الحياة كانت بالتوجيه ملازمة للقرآن، وبالتالي فإن اعتبارها مصدر الإلزام الخلقي أمر واجب.

المصدر الثالث: الإجماع:

إن دور الإجماع هو حسم مشكلة جديدة، ذات طابع أخلاقي أو فقهي، أو عبادي ، قال تعالى : ((كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)).

قال السعدي (رحمه الله) " يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، و بتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس ".

– العوامل التي تحمل على الالتزام الخلقي :

– هناك جملة من العوامل تحمل المرء على الالتزام، وتعينه عليه، وهي تنقسم إلى داخلية وخارجية :

–العوامل الداخلية :

و يمكن حصرها في أربعة: الإيمان والعقل والفطرة والضمير

–.الإيمان : ونعني به الإيمان بالله وبرسالاته وباليوم الآخر، فإن لها أكبر الأثر على الالتزام بالأخلاق الحميدة.

– العقل : وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعةً ومفيدةً أقْدَمَ عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارةً أو أليمةً أحجمَ عنه.

– الفِطْرة : فقد غرس الله سبحانه في الإنسان الفِطْرة، وجعلها تهفو إلى الإيمان والخُلُق الحميد إذا تركت وشأنها، ولم تتدخل الأطراف الخارجية.

– الضمير: (أو ما يسمى بالوازع الديني) ويُقصد به ذلك الشعور الخفي الذي يُحِسُّ به المرءُ في أعماق نفسه، يناديه ويدفعه إلى ممارسة فعلٍ أو الكف عنه. وحين يستجيب لندائه يغمره شعور عارم بالراحة واللذة، بعكس ما لو تجاهله، حيث يشعر بالانقباض والألم النفسي.

العوامل الخارجية:

ويمكن حصرها في عاملين رئيسين:

– المجتمع: فإن الأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم، وتأخذ على يد الظالم والعابث ،وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرها، كما قال تعالى: ((واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)).

السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (ولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حملُ الناسِ على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً ، و التحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن الرذائل.

– تعريف المسؤولية الخلقية، وذكر خصائصها :

– تعريف المسؤولية الخلقية :

المسؤولية كلمة حديثة الاستعمال، ليس لها وجود في استعمالات الفقهاء المتقدمين، إنما هي تعبير استعمله بعض الفقهاء المتأخرين إن الأخلاق الإسلامية قائمة على التكليف، ويعني هذا أن الأخلاق الإسلامية قائمة على المسؤولية التي تلزم الإنسان بالعمل الخلقي.

يقصد بالمسؤولية: "تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله" .

– شروط المسؤولية الخلقية :

1. الإعلام والبيان:

إن الإنسان يجب أن تصل إليه الدعوة، وذلك حتى تستيقظ الضمائر الغافلة، وهذا لا يتم إلا بإعلام الإنسان بما هو مفروض وواجب عليه فعلاً أو تركاً، بمعنى أن الإنسان لابد أن يكون عالماً بما هو مكلف به.

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعلم الإنسان وتعلم الأمم بواجباتها وحقوقها عن طريق الرسل الذين يذكروهم دائما بالأوامر الشرعية من أجل تحقيق المسئولية والالتزام، وقد وردت الآيات القرآنية دالة على ذلك، فما كان الله ليحاسب إلا بعد الإبلاغ والبيان والإعلام،

وما كان الله ليعذب أهل القرى دون أن يرسل لهم الرسل والأنبياء لدعوتهم إلى التقوى والصلاح وحتى يكونوا شهداء عليهم ، قال تعالى: ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)).

قال الشوكاني (رحمه الله) " ذكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم، والظاهر أنه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل، وبه قالت طائفة من أهل العلم."

2. الالتزام الشخصي:

تتسم المسؤولية الخلقية في الإسلام بأنها ذات طابع شخصي فردي خالص، قال الله تعالى: ((مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)).

ففي الآية إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد.

3. النية (القصد) :

الإنسان غير مسؤول عن الأعمال اللاإرادية، ولا هو مسؤول عن الفعل الخطأ غير المقصود؛ وذلك لعدم استهدافها الشر أو الخطأ. فالإنسان لا يحاسب على عمل إلا إذا توافر القصد الكامل له، وهذا مصداق قوله سبحانه وتعالى: ((وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم)).وهكذا يظهر دور النية في الأخلاق الإسلامية باعتبارها شرطاً ضرورياً، ومصداق هذا قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنما الأعمال بالنيات» .يفيد الحديث أن الأعمال لا قيمة لها إلا بالنية، وأن الأعمال بنياتها، وهذا يؤكد وجود النية كشرط لقيمة الفعل الخلقي .

4. حرية الاختيار:

أي أن يكون الخلق نابعاً من إرادته، مختاراً فيه؛ وإلا فلو كان مكرهاً لم يتحمل مسؤولية تصرفه؛ لأنه بذلك يكون قد تحول إلى آلة لتنفيذ الفعل، ولا يُنسب الفعل إليه. قال تعالى: ((مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)).

فبين أن الإثم مرفوع عن المكره ولو نطق بكلمة الكفر مادام يجد قلبه مطمئناً بالإيمان، وفي الحديث أيضاً يقول النبي : ((إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عن أمتي الخطأ والنسيَانَ وما استُكْرِهُوا عليه)).

تعريف الجزاء الخلقي، وذكر أنواعه.

– تعريف الجزاء الخلقي:

هو المكافأة أو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي. سواءٌ أكان هذا الجزاء ظاهراً كالسجن، أم باطناً كتأنيب الضمير. وسواءٌ أكان في الدنيا، أم في الآخرة

– للجزاء الأخلاقي ثلاثة أنواع هي :

1– الجزاء نفسي داخلي.

2– الجزاء الشرعي.

3 – الجزاء الإلهي.

– و فيما يلي تناول موجز لهذه الأنواع :

أولاً: الجزاء الأخلاقي المباشر:

يباشر الإنسان عمله طبقاً لقواعد يعرفها ويحس بها، وبعد ذلك تحدث في النفس أصداء معبرة عن الرضا في حالة النجاح، وعن الألم في حالة الفشل. إن الجزاء النفسي الداخلي يلمسه المسلم من نفسه بالرضا عند الطاعة، والألم عند المعصية، وهو ما يسمى برضا الضمير، أو تأنيبه ووخزه. و قد أخبر الرسول عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: ((من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)).

ثانياً: الجزاء الشرعي:

المراد بالجزاء الشرعي: تلك العقوبات التي أقرتها الشريعة الإسلامية لأولئك الذين يتعدون حدود الله، فيظلمون بذلك أنفسهم أولاً، وغيرهم ثانياً.

وبالنظر في نظام المجازاة في التشريع الإسلامي

– يمكن أن نميز فيه مرتبتين أساسيتين هما:

الحدود: هي الجزاءات التي حددها الشرع بدقة وصرامة. وهي من حقوق الله تعالى، ولا تسقط بالعفو ولا بالصلح.

التعزيرات: وهي عقوبات تأديبية يفرضها القاضي على جناية أو معصية لا حد فيها.

ثالثاً: الجزاء الإلهي:

قد يكون الجزاء الإلهي معجلاً في الدنيا، ومن أمثلته من كتاب الله: ((وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)).وقد يمتد أو يؤجل الجزاء الإلهي إلى الآخرة ، قال تعالى: ((أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)).